الفصل الثاني

مستشفى الولادة

الميلاد في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٨٧م

في الزاوية رقم 1249 من شارع فيرازورو، يجثم مجمع أبنية ضخم مستطيل الشكل، لونه يُماثِل لون القشدة، وهو مبني على طراز يحاكي طرز المباني التي شُيِّدت في القرن التاسع عشر؛ إنّه المستشفى الإيطالي الذي شُيِّد تكريمًا لجوسيبي غاريبالدي، الذي بُنِي له أيضًا تمثال في ساحة بلازا دي إيتاليا في روزاريو.

يُعَدّ غاريبالدي شخصية قومية مشهورة نالت لقب «بطل العالمَين»؛ بسبب المعارك التي خاضها هذا القائد على طول نهر بارانا عندما نُفِي إلى أمريكا الجنوبية. لقد تركت جماعة السترات الحمر التي كان يقودها غاريبالدي آثارها في تلك المناطق؛ فعلى سبيل المثال، يوجد مستشفيان في روزاريو وبوينوس آيرس أسَّسهما أشخاص كانوا قد نُفوا لأسباب سياسية، ولدعمهم ماتزيني وغاريبالدي والاتحادات العمالية التي أسّساها.

وقد دُشِّن مجمع روزاريو الطبي في الثاني من تشرين الأول عام ألفٍ وثماني مئة واثنين وتسعين لخدمة الجاليات الإيطالية التي كانت تُمثِّل آنذاك 70٪ من مجموع المهاجرين الذين وصلوا من أوروبا. يمتلك المجمع في يومنا هذا أحد

obeikandl.com

أفضل أقسام الولادة في المدينة. وهنا تبدأ قصة ليونيل ميسي، المولود الثالث في عائلة ميسي- كوشيتيني، في الساعة السادسة من صباح يوم شتوي.

والـده خورخي الذي يبلغ من العمر التاسعـة والعشرين، يعمل رئيس قسم في شركة إسندار لصناعة الصُّلْب في منطقة فيا كونستيتيوسيون التي تبعد نحو 50 كيلومتـرًا عـن روزاريو، في حين تعمل والدته سيليـا البالغة من العمر سبعة وعشريـن عامًا في ورشة لتصنيـع المغناطيس. وقد التقيا فـي الصغر في حيّ لاس هيراس الذي كان يُعرَف سابقًا باستـادو دي إسراييل، ويُعرَف اليوم بحيّ سـان مارتـن، الواقع في القسـم الجنوبي من المدينة، حيـث السكان البسطاء والكادحون.

يعمـل أنتونيو، والد سيليـا، فنيًّا لتصليح الثلاجـات والمكيفات والأجهزة الكهربائيـة الأُخرى. وقـد عملت والدتها التـي تحمل اسم سيليـا أيضًا خادمةً سنوات. أمّـا أوزيبيو، والد خورخي، فيعمل في مجال الإنشاءات، في حين تعمل أمّه روزا ماريا خادمةً أيضًا.

يسكن هؤلاء جميعًا على بُعْد مسافة مئة متر تقريبًا من بعضهم بعضًا. وهم ينحـدرون من أصول إيطاليـة وإسبانية شأنهم في ذلك شأن كثير من العائلات الأُخرى التي تسكن هنا. أمّا اسم عائلة ميسي فيرجع في أصله إلى بلدة إيطالية تُدعـى بورتو ريكاناتي، وهي تقـع في ولاية مازيراتا التي شهـدت ولادة الشاعر جياكومو ليوباردي، ومغني الأوبرا بنيامينو جيغلي.

وتقـول الرواية: إنّ شخصًا يُدعى إنجيلـو ميسي غادر من هناك على متن واحـدة من السفن الكثيرة المتجهة إلى أمريـكا عند نهاية القرن التاسع عشر؛ بحثًـا عن حياة أفضل في العالَم الجديـد، بعدما اشترى تذكرة للدرجة الثالثة، شأنه في ذلك شأن معظم المهاجرين.

obeikandl.com

تملـك عائلة كوشيتيني جـذورًا إيطالية أيضًا من جهـة الأب. ومع أنّ تلك العائـلات تنحدر من المناطـق السهلية الرطبة، لكنها استقـرت في المدن في نهاية المطاف.

تقع مدينة روزاريو التي يبلغ عدد سكانها نحو مليون نسمة، على بُعْد ثلاث مئـة وخمسة كيلومترات عن العاصمة بوينوس آيرس، وهي تُعَدّ كبرى مدن ولاية سانتـا فيه، وتمتد على طول ضفـاف نهر بارانا. في حين يمتد متنزه كوستانيرا علـى طول النهر وصـولًا إلى جسر نويسترا سينيورا دل روزاريو الذي يقطع مياه النهر وجزره ليصل المدينة بمدينة فيكتوريا.

احتـل نهر بارانا مركـزًا مهمًّا على مرّ الزمن فيما يخصّ النقل النهري؛ فمـن هناك تُصـدَّر كثير مـن المنتوجات الزراعيـة إلى دول اتحـاد ميركوسر جميعهـا (الأرجنتيـن، البرازيـل، الأوروغـواي، الباراغـواي)، ولعـلّ أبرزهـا محصول الصويا الذي جَلب - في الوقت الحالي- الثروة إلى هذه المناطق، ما أدّى إلى تحضّرها.

وعلى الرغم من ظهور مبانٍ وناطحات سحاب جديدة إلى جانب فلل لافتة علـى الشاطئ ذي الرمال الناعمة التي ترسَّبت مـن النهر، تظل روزاريو مدينة ذات هوية وطنية بامتياز.

يتجمّع طلبة المدارس بلباسهم الأبيض لالتقاط الصور عند قاعدة نُصْب العلـم الـذي بُنِي على الطـراز السوفيتي القديـم، ودُشِّن عـام 1957م؛ تخليدًا للمكان الذي أصدر منه الجنرال مانويل بلغرانو الأوامرَ لرفع العلم الوطني أول مرّة في السابع والعشرين من شهر شباط عام ألفٍ وثماني مئة واثني عشر.

وروزاريـو هي مدينة أحفـاد المهاجريـن، ومدينة العشوائيـات والمنازل الريفية. ولكن، لندع عنّا قصص الهجرة والثقافات واللغات والتقاليد المختلطة

التي تطبع الأرجنتين بطابع خاص، ولنتكلّم عن خورخي وسيليا، اللذيْنِ وقعا في الغرام، وأصبحا على علاقة في سنّ صغيرة.

تـزوّج خورخـي وسيليا في السابع عشـر من حزيران عام ألـفٍ وتسع مئة وثمانيـة وسبعين، فـي كنيسة كوراثـون دي ماريا (قلب مريـم). وكانت البلاد وقتئـذٍ مشغولة ببطولة كأسـ العالَم، لدرجـة أنّ العروسيْـنِ الجديديْنِ اللذيْنِ يقضيان شهر العسل في مدينة باريلوشه يحرصان على متابعة مباراة الأرجنتين أمـام البرازيل الجارية في روزاريو. وقد انتهـت هذه المباراة بالتعادل من دون أهـداف. ولكن بعـد ثمانية أيام، وعلى ملعب موني مونتـال الخاص بنادي ريفر بلايـت، تغلّب المنتخب الأرجنتيني الملقّـب بالألبيسيليتي (أي الأبيض والأزرق السمـاوي) على المنتخب الهولنـدي بثلاثة أهداف مقابل هـدف واحد، ليفوز بكأسـ العالَم، بقيادة المدرِّب سيـزار لويس مينوتي. وقد عَمّ البلاد – بعدئذٍ- فـرح غامر، وجنون عـارم؛ كأنّ لاعبي المنتخب (فيلـول، وأولغوين، وغالفيان، وباساريـلا، وتارانتينـي، وآرديليسـ، وغاليغـو، وأورتيـز، وبيرتونـي، ولوكـي، وكيمبسـ) قد أبعدوا كلّ الذكريات المرتبطة بحقبة الحكم العسكري، وأسدلوا الستـار على مأسـاة آلاف المنشقين الذين فارقوا الحيـاة، والمواطنين الذين «اختفوا» فجـأة، ويزيد عددهم على 30 ألفًا، فضلًا عن التعذيب والفظائع التي ارتكبهـا الجنرال رافاييـل فيديلا في أثناء حكمه العسكـري المستبد المجبول بالـدم والعنف، الذي انطلقت شرارته في الرابـع والعشرين من شهر آذار عام ألفٍ وتسع مئة وستة وسبعين عند تنحية إيزابيل بيرون.

ومـازال ممكنًا مشاهدة عبـارة «كأس العالَم القذر»، فـي شوارع بوينوس آيرسـ، مكتوبةً أسفل ملعـب كرة قدم أخضر، والتاريـخ (1978م) منقوش إلى جانبها.

opelkanal.com

ومع أنّ البلاد لا تزال في قبضة الحكم المستبد بعد عامين على الانقلاب، لكـن الحياة مستمرة. فبعد حيـن، أصبح خورخي وسيليا أبوين؛ إذ وُلِد رودريغو مارتن في التاسع من شباط عام ألفٍ وتسع مئة وثمانين، ثمّ وُلِد ابنهما الثاني، ماتياس هوراشيو، في واحدة مـن أحلك الساعات في تاريـخ البلاد. فقد قَدِمَ إلـى هذا العالَم في الخامس والعشرين من حزيران عام ألفٍ وتسع مئة واثنين وثمانين؛ أي بعد أحد عشر يومًا فقط من نهاية حرب فوكلاند.

حصـرت الأرجنتين التـي هُزِمت في الحرب خسائرَهـا (649 قتيلًا، وأكثر مـن 1000 جريح)، ولم ينسَ جميع الرجـال الذين أمضوا شهرين ونصف الشهر تحت القصف، حالةَ الهلع التي أصابتهم. لقد كانوا من المتطوعين الشباب الذين تنقصهـم الخبرة والمعـدات، وقد أُقنِعوا بالانضمام إلـى الجيش بحُجَّة الوطنية الزائفة؛ لكي يعيدوا غزو أرخبيل فوكلاند الذي تحتله بريطانيا منذ عام 1833م.

كانـت العمليـة روزاريـو، وهو الاسـم الذي أُطلِـق على الغـزو الأرجنتيني الرئيـس بقيادة الجنرال ليوبولد غالتييري في الثاني من نيسان عام ألفٍ وتسع مئة واثنين وثمانين، واحدةً من المحاولات الكثيرة اليائسة التي قام بها المجلس العسكـري؛ بهدف صـرف انتباه الشعـب عن الكارثـة التي تَسبَّب بهـا برنامج الإصـلاح الاقتصادي الـذي قُدِّم عـام 1980م. فقد تمخّضت تلـك السياسات عـن تضخّـم بلغت نسبتـه 90٪، إضافـة إلى ركـود أصاب مختلـف القطاعات الاقتصاديـة، وارتفـاع الديـن الخارجي على الشـركات الحكوميـة والخاصة، وانخفاض قيمة الرواتب، وإفقار الطبقـة الوسطى (وهي ميزة يمتاز بها تاريخ هذا البلد، وتُميِّزه عن بقية الدول الأُخرى في أمريكا الجنوبية) تحديدًا.

كان من المفترض أن تُنسي الحرب الناسَ مآسي الماضي، وتُوقِظ فيهم حسّ الوطنية، لكنّ غالتييري لم يكن جاهزًا بعدُ لمواجهة المرأة الحديدية مارغريت

تاتشر، ولم يأخذ قوة الجيش البريطاني في الحسبان. دحرت القوات البريطانية الجيشَ الأرجنتيني بعدها بأسابيع قليلة، وقد مثَّل ذلـك كارثة للأرجنتين، أدّت لاحقًـا إلى سقوط المجلس العسكـري، والانتقال إلى النهج الديمقراطي في وقت لاحـق من العام نفسـه. ولا تزال مسألـة استعادة جزر مالفيناس (الاسم الذي تُطلِقه الأرجنتين على جزر فوكلاند) قائمة حتى يومنا هذا.

عمـدت الدولة إلى بنـاء نُصب في متنزه العلم الوطنـي بروزاريو؛ تكريمًا «للأبطـال الذين يعيشون في جزر مالفيناس»، وينصّ دستور عام 1994م على أنّ استرجاع تلك المنطقة هدفٌ لا يجوز التخلّي عنه.

ولكن، عام 1983م، آلَ الفوز في الانتخابات إلى راؤول ألفونسو، وهو واحد من سياسيين قلائل لم يتورطوا مع الجيش، وقد أكَّد أنّ هدف قادته الوحيد من وراء الحرب هو تعزيز الاستبداد.

تمـرّ أربع سنوات، وسيليا على وشك إنجاب طفلها الثالث، والوضع ما زال متأزمًـا، فالأرجنتين علـى شفا حرب أهلية في أسبوع الآلام من عام 1987م؛ إذ ثـارت على الحكومة مجموعةٌ من الضباط الشبـاب الذين أطلقوا على أنفسهم اسم كارابنتاداس (أي الوجوه المطلية) بقيادة العقيد إلدو ريكو، مُطالِبةً بإنهاء المحاكمـات الخاصة بالخروقات التي طالت حقـوق الإنسان إبّان حقبة الحكم العسكـري. وفـي الوقت الذي رفضـ فيه القـادة العسكريون الانصيـاعَ لأوامر رئيسـ البلاد، نزل الناس إلى الشـارع في محاولة لحماية الديمقراطية، وأعلن الاتحـاد العام للعمّال عن إضراب شامـل، ثمّ يظهر راؤول ألفونسو في الثلاثين مـن نيسان، مخاطبًـا الحشد المتجمّع في بـلازا دي مايو بقولـه: «تمّت تسوية الأوضاع، أتمنى لكم عيد فصح سعيد»، لقد كانت عبارة سيسطرها التاريخ؛ لأنّ ذلك ما آلت إليه الأمور فعلًا.

obeikandl.com

لقد تعيّن على الرئيس الذي لم يكن ليقوى على الجيش، الدخول في مفاوضات مع مجموعة كارابنتاداس، ووعدهم بإنهاء المحاكمات بحقّ العسكر.

ثمّ يأتي قانون (طاعة الأوامر) الذي يُخلي ساحة الضباط ومَنْ يتبع لهم، مِن الفظائع التي ارتكبوها؛ بوصفهم جنودًا كانوا يُنفِّذون الأوامر الصادرة عن رؤسائهم. وقد بدأ تطبيق هذا القانون في الثالث والعشرين من حزيران عام 1987م؛ وهو اليوم نفسه الذي أُدخِلت فيه سيليا قسم الولادة في مستشفى غاريبالدي. وقد بقي ولداها الآخران – رودريغو صاحب الأعوام السبعة، وماتياس ذو الأعوام الخمسة – في المنزل مع جدّتهما، بينما اصطحب خورخي زوجته سيليا إلى المستشفى. كان يودّ أن يُرزَق بفتاة بعد أن حباه الله بولدين، لكنّ قدره كان أن يرزَق بولد ثالث. مرّت مدة الحمل بهدوء وسلام، لكنّ الأمر تعقَّد في الساعات القليلة التي سبقت عملية الولادة؛ إذ شخَّص طبيب النسائية نوربيرتو أوديتو اعتلالًا جنينيًّا حادًّا، فقرَّر تحفيز عملية الولادة؛ لتجنّب أيّ تأثير طويل الأمد على المولود. يتذكّر خورخي هذا الموقف العصيب حتى الآن، والخوف الذي غلَّف تلك اللحظات، والرعب الذي شعر به عندما أخبره الطبيب بأنّه سيستخدم الملقط الطبي، ورجاءَه للطبيب أن يبذل كلّ ما باستطاعته لتجنّب ذلك؛ لأنّه سمع قصصًا مخيفة عن التشوّهات التي تَلحق بالمولود من جرّاء استخدامه. ولحسن الطالع، لم يُستخدَم الملقط في نهاية المطاف.

قبل السادسة صباحًا بدقائق معدودات، وُلِد ليونيل أندرياس ميسي، وكان يزن ثلاثة كيلوجرامات، وبلغ طوله 47 سنتيمترًا، وغلبت على وجهه حُمرة كالطماطم، وكانت إحدى أذنيه مثنية بالكامل نتيجة تسريع عملية الولادة (أحد التشوّهات الخلقية التي تزول بعد ساعات قليلة عند معظم المواليد). وبذا، حلَّت الفرحة مكان الخوف؛ فالوافد الجديد بصحة جيدة، على الرغم من لونه المائل للوردي قليلًا.

أمّـا الوضع خـارج حـدود المستشفى، فيبـدو أنّـه كان أكثـر اضطرابًا؛ إذ انفجرت قنبلة في المدينة، وانفجرت أُخرى في شركة فيلا للمقاولات، حيث يعمل خورخي. ثمّ ارتفع عدد التفجيرات – التي جاءت ردّ فعل على قانون طاعة الأوامر– إلـى خمسة عشـر تفجيرًا في أرجاء البـلاد شتّى. ولحسن الحـظ، لم يمت أحد، فقـد اقتصرت الأضرار على الجوانـب المادية فقط. وفي واقع الأمر، فقد كشفت التفجيرات عن مدى انقسام البلاد الغارقة في غياهب الحكم العسكري والأزمات الاقتصادية الحادّة. وكان وزير التجارة المحلية قد أعلن توًّا تطبيق تعرفة جديدة لتسعير المواد الأساسية؛ ارتفع بموجبها سعر الحليب والبيض بنسبة 9٪، والسكر والذرة بنسبة 12٪، والكهرباء بنسبة 10٪، والبنزين بنسبة 8٪.

لقـد فاقم هذا القـرار من معاناة العائلات الكادحـة، مثل عائلة ميسي– كوشيتينـي، مع أنّها كانت تحصل علـى راتبيْنِ، ولا تدفع بدل إيجار للبيت الذي تسكنـه. فقد بنى خورخي البيت بمساعدة والده على مدار عطل أسبوعية عدة، علـى قطعة الأرض التي تملكها العائلة، وتبلغ مساحتها 300 متر. وقد تألّف هذا البيـت المبنـي من الطوب مـن طابقيْنِ وحديقـة خلفية وفـرَّت للأطفال مكانًا للعب، وهو يقع في حيّ لاس هيراس.

يصـل ليونيل إلى هناك في السادس والعشرين من حزيران بعد أن غادر وأمّه المستشفى الإيطالي.

وبعـد ستة أشهر من ذلك التاريخ، ظهرت صـور لليونيل في ألبوم العائلة، وكان يبـدو فيها ممتلئ الخـدود مبتسمًا، وهو مستلقٍ علـى سرير أبويه، يرتدي سروالًا أزرق صغيرًا، وقميصًا أبيض.

بدأ ليونيل بمطاردة أخويه عندما بلغ الشهر العاشر من عمره، وقد تعرّض وقتهـا لحادثتـه الأولى؛ إذ خـرج من المنـزل – لا أحد يعـرف السبب بطبيعة

obeikandl.com

الحال– ربّما للعب مع الأولاد الآخرين في الشارع الذي لم يكن قد مُهِّد حينها، ولم تكن السيارات تمرّ به بكثرة. وفجأة، تمرّ درّاجة هوائية فتسقطه أرضًا. ثمّ ينفجر باكيًا، ويُهرَع كلّ مَنْ في المنزل إلى الشارع. يبدو أنّ الأمر على ما يرام؛ إنّه مجرّد خوف اعتراه. لكنّه لم يتوقّف عن الشكوى طوال الليل، وأخذت ذراعه اليسرى تتورّم، فيأخذه والده إلى المستشفى ليلًا، ليتبيَّن أنّه يعاني كسرًا في عظم الزند، وأنّه في حاجة إلى جبيرة.

يشفى الكسر بعد بضعة أسابيع، ثمّ يحلّ عيد ميلاده الأول، فتشتري له خالاته وأعمامه قميصًا لأحد أندية كرة القدم، في محاولة مبكّرة لجعله يشجّع فريقه المستقبلي؛ نيولز أولد بويز. لكنّ الأمر لايزال مبكّرًا؛ إذ يُفضِّل ليو، الذي بلغ الثالثة من العمر الآن، اللعبَ بالبطاقات المصوّرة، وبأصغر الكرات حجمًا؛ وهي الكرات الزجاجية (الدواحل). وقد تمكّن من جمع كثير منها بعدما ربحها من زملائه في اللعب، وكان كيس الكرات خاصته مملوءًا على الدوام.

وفي المقابل، فقد كان الوقت متاحًا دائمًا للعب بالكرات المدوّرة؛ سواء في الحضانة، أو في المدرسة. ولمّا أهداه أبواه في عيد ميلاده الرابع كرةً بيضاء مرسومًا عليها ماسات حمراء، حدث أمر لافت غيَّر– على الأرجح– منحى حياته كلّها، فقد جاء اليوم الذي فاجأ به الجميع؛ والده وأخواه يلعبون كرة القدم في الشارع، وليو يُقرِّر مشاركتهم اللعب للمرّة الأولى. لقد كان فيما مضى يُفضِّل كسب الكرات الزجاجية. ولكن، ليس هذه المرّة. يقول خورخي: «ذُهِلنا عندما رأينا قدراته. كانت تلك المرّة الأولى التي يلعب فيها الكرة».